من أمراضنا الفتّاكة

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/٧/٢٤م

بمقدار ما نجد إسلامنا عظيمًا، بمقدار ما نجد في أنفسنا ضعفًا في التعبير عنه، فعلوم الإسلام ومبادئه عظيمة، لكن تطبيقاتنا في مجتمعاتنا الإسلامية لا تتناسب مع عظمة هذا الإسلام.

وإن الفرق بيننا وبين سلفنا الصالح كبير، فنحن نمتلك اليوم من التصنيف ومن الكتب والاصطلاحات ما لم يكونوا يمتلكونه، ولدينا ثروة علمية تراكمية كبيرة.

هم قرؤوا كتاب الله تبارك وتعالى، وسمعوا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، لكن الفرق بيننا وبينهم أنهم تفاعلوا بذواتهم وأرواحهم وقلوبهم وعقولهم... معها، وكانوا أصحاب جدِّية في التفاعل مع هذا الإسلام العظيم، لكننا نجعل إسلامنا محبوبًا مرموقًا في الألسن، وحينما ننـــزل إلى ساحات التطبيق لا نجد فيها ما يعبر عن عظمة هذا الإسلام.

لقد أنشأ الإسلام مجتمعًا، ودعا إلى علم وعمل، وإلى بنية إنسانية متماسكة قوية... لكننا اليوم نعيش أمراضًا لا علاقة للإسلام بها، إنما هي ناتجة عن بُعدنا التفاعليّ عن هذا الإسلام، ثم بعد ذلك نحن نعاني من هذه الأمراض، ونجد أنها تزداد يومًا بعد يوم لأننا لا نحوّل الفكرة إلى واقع عمليّ.

ولنستعرض في عجالة على سبيل المثال لا الحصر بعض هذه الأمراض:

الإسلام دعانا إلى العلم: فهل نحن اليوم في مجتمعاتنا الإسلامية نتفاعل مع دعوته إلى العلم حقيقة؟

واليوم نحن نعيش أَسر أنظمةٍ تمّ استيرادها من الآخرين واعتبرت حدًّا مقدسًا، والإسلام يدعو إلى العلم دعوة مفتوحة لا تحدد للعلم عمرًا، لكننا في استيرادنا قيّدنا أنفسنا بما يسمى بأعمار التعليم، والبلادُ المتطورة الغربية تحرّرت من هذه العقدة، ونحن لم نتحرّر منها بعد، فيستطيع طالب العلم في البلاد المتطورة (كبيرًا كان أو صغيرًا) أن يتعلم، لكننا أسرى العمر...

وهذا يتناسب في الأصل مع دعوة إسلامنا، لكننا في البلاد الإسلامية لا نتناسب مع هذه الدعوة، فيستطيع طالب العلم عندهم أن يحصّل المعلومة المطلوبة في زمن قصير، إذ هناك من يحصل على شهادات الدكتوراه وهو في أول العشرينيات من عمره لأن العلم مفتوح، وهذا يذكرنا بتاريخنا عندما كان الشافعيّ رضي الله تعالى عنه مجتهدًا مطلقًا في عمر الثامنة عشرة.

نعم، الإسلام يدعو إلى علمٍ مفتوح الحدود ونحن نقيد.

عقدة الشهادة الثانوية – التي يعاني منها شبابنا اليوم، والتي تشكل بحيثياتها وعاءً حفظيًّا – لا تدرّب الطالب على التعامل مع العلم التطبيقيّ، إنما يُطلب منه أن يكون حافظة، فلا يُعتبر جهدُه، ولا يُعتبر سلوكُه المتفاعل مع العلم في وقت تعلمه، إنما يحدّد بمدة قصيرة وبأسلوب لا يتناسب مع ما يمكن لطالب العلم أن يكون فيه من حريةٍ أو انفتاحٍ على المعلومة.

لقد أصبحنا نعاني من الشهادة الثانوية اليوم بما نراه في حيثياتها، وعندما يحصل عليها هذا الطالب يجد نفسه أمام الحواجز الكبيرة التي تقف أمامه، فلا يستطيع دخول الجامعة، حتى لقد أصبحت الجامعة حُلُمًا.

وإذا انتقلنا إلى مساحة الجامعات الخاصة فإننا نرى الجامعات المتطورة، لكنها تطلب الرسوم التي لا يتحملها دخل الفقير، فتتحول إلى ساحة خاصة بالأغنياء، ولا نجد تكافلاً اجتماعيًّا يدفع هذا الطالب الذكيّ الفقير من أجل أن يتعلم.

إذًا: هناك أزمة بكل معنى الكلمة على المستوى العلميّ، فنحن نقيّد العلم بالأعمار، ونضع الحواجز، ونضع الشروط التي تحول طالب العلم، كبيرًا كان أو صغيرًا، إلى حالةٍ من الإحباط.

ثم إن عدد الطلبة في العلوم الكونية لا يتناسب مع عددهم في العلوم الأدبية، فنحن نفتح الباب عريضًا أمام العلوم الأدبية من أجل أن نتعلم الكلام، ولكننا في العلوم الكونية نضيّق ولا نفتح مجال البحث التطبيقيّ، وأصبح البحث التطبيقيّ مقتصرًا على مرحلة ما بعد التخرج، وهذا لا نجده في الدول غير الإسلامية، حيث يبدأ الطالب فيها وهو في المدرسة الابتدائية بربط المعلومة النظرية مع العلم التطبيقيّ.

فإذا انتقلنا من البيئة العلمية الكونية إلى **البيئة العلمية الدينية** أُصبنا بخيبة أمل وصدمنا ونحن نرى أمورًا عجيبة غريبة:

فكم من خرافاتٍ تُنشر على منابر العلم الدينيّ، وهي لا تعبّر عن الإسلام، ولا أصل لها في الإسلام!

وكم من الحكايات الإسرائيلية التي تُقرأ في كتب التفسير ثم يُنظر إليها على أنها أمثلة من الإسلام!

وكم من الوُعّاظ من ينشر الأحاديث الموضوعة أو المكذوبة أو التي اشتد ضعفها حتى أصبحت متروكة!!

ثم ننتقل من ساحة العلم إلى **ساحة العمل**، والإسلام يدعونا إلى العمل، ويدعونا إلى أن نكون في حركة مستمرة فاعلة، فلو أننا درسنا الإسلام فيما يتحدث فيه عن الاقتصاد لوجدنا أن الإسلام لا يهمل من عناصر الإنتاج شيئًا أبدًا، فهو لا يهمل عنصر الأرض، ولا يهمل عنصر المال، ولا يهمل عنصر اليد العاملة... إنما يحرك الجميع في منظومةٍ جادّة تبني نهضة وحضارة.

لكننا اليوم نسير مع الأسف – ونحن في المجتمعات التي تسمى مجتمعات إسلامية – نحو التفاوت الطبقيّ الكبير، فالفقر يشتد، وهناك طبقة تنحدر إلى الحضيض من شدة فقرها، وهناك طبقة تنال المال من غير جهد كبير، فهناك إذًا تفاوت طبقيّ كبير بدأ يظهر في مجتمعاتنا لا يعبر عن الإسلام ولا يتناسب معه، وهذا من الأمراض الفتاكة الجديدة التي نعيشها، والإسلام يطببها لو أننا تفاعلنا معه، لكننا مع الأسف لا نتفاعل مع الإسلام، إنما نتفاعل مع الـــ: "أنا".

وكذلك **الأداء المهنيّ الحرفيّ انفصل عن العلم**: وهناك في العالم كليات متخصصة في المهن والحرف، ومعاهد تدرب وتربط المهنة أو الحرفة مع العلم، لكننا عندما ندخل إلى مساحة المهنة أو الحرفة لدينا نجدها بعيدة عن العلم بُعدًا تامًّا، وهكذا نجد فيها الاضطراب، والأمرُ مستند إلى الخبرة والتجربة الشخصية.

وهذا لا يتناسب مع ما يقدّمه الإسلام من الدعوة إلى الإتقان.

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شابًّا يسلخ شاةً فقال له: **(تنحَّ)**، ثم علمه بيده الشريفة صلى الله عليه وسلم، **فأدخل يده بين جلد الشاة ولحمها ثم قال له: هكذا فاسلخ.**

هكذا علمه صلى الله عليه وسلم تعليمًا تدريبيًّا تطبيقيًّا، فلم يكن تعليمًا نظريًّا مجردًا عن العمل، إنما كان في هذا التعليم متفاعلاً مع المعلومة إلى درجةٍ أشهد فيها المتعلمَ تطبيق المعلومة.

فلا يتناسب ما نحن فيه اليوم مع دعوة الإسلام.

أين نحن من دعوة الإسلام التي يقول فيها: **(من أحيا أرضًا مواتًا فهي له)؟**

إنه يحث كلّ الناس على العمل من أجل أن يستثمر الإنسان جهده البشريّ، ومن أجل أن يستثمر أرض الله، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(الأرض أرض الله)**.

وكذلك المال الذي بيده هو مسؤول عنه أمام الله، فليس هذا المال الذي ملكه في يده متروك هكذا، إنما هو من المسؤوليات التي سيُسأل عنها الإنسان أمام الله.

هكذا يقدم الإسلام النموذج في الدعوة، لكننا بعيدون عن هذا على مستوى التطبيق العمليّ.

أما توجيه الإسلام **إلى المجتمع** فإننا نجد أنه يوجه إلى مجتمعٍ نظيفٍ متماسك، فهل هذا الذي وجه الإسلام إليه نعيشه اليوم على المستوى الاجتماعيّ، أم أننا نرى انحرافاتٍ بعيدةً تمامًا عن معنى النظافة، ونعيش تفككًا اجتماعيًّا؟

فلم يعد الجار جارًا، ولم يعد القريب قريبًا، ولم تعد هذه العلاقات الإنسانية التي يدعو الإسلام إليها وكان عليها سلفُنا وأجدادُنا، ولم نعد نرى منها إلا القليل القليل.

وننتقل بعد ذلك إلى نموذج آخر أو مثال آخر **على مستوى الدعوة**، التي من المفترض أن تكون البيئة النموذجية، فإذا كنا نجد خللاً على المستوى العلميّ الكونيّ، وعلى المستوى المهنيّ والعمليّ والاقتصاديّ، وعلى المستوى الاجتماعيّ... فمن المفترض أن تكون بيئة الدعوة هي البيئة النموذجية لأنها الأقرب إلى النصّ النظريّ الإسلاميّ، لكن ما الذي نراه اليوم في ساحة الدعوة الإسلامية وهذا يندرج في أمراضنا الفتاكة؟

إننا نرى الاختلاف لا الخلاف، فنرى الاختلاف الفكريّ الذي يسوق إلى العداء والتنازع، ونرى فارقًا كبيرًا بين أدب الاختلاف الذي كان عليه سلفُنا وبين صراع الاختلاف الذي نعيشه اليوم.

كما نجد شعورًا بالإحباط على مستوى من يعيشون ساحة الدعوة، فإذا نظرت إلى مضمونات ما يتحدثون فيه لا تجد روح الأمل، فالداعية إلى الله ينبغي أن يحتفظ في قلبه بالأمل، فمهما رأى المرض شديدًا، ومهما رأى الظرف قاسيًا، عليه أن يبقى متمسكًا بقوله تعالى: {لا تَقْنَطُوا} [الزمر: ٥٣]، وعليه أن يحتفظ بروح الأمل، لكن هذه الروح ضعفت، وإذا ما سألتَ من يشتغل بالدعوة أو اختلطت معهم وجدت أن الإحباط أصبح شعارًا على مستوى الكلمات أو على مستوى الحركة السلوكية.

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إمامنا يقول: **(لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه).**

لقد أصبحنا نعيش ندرة الصدق والإخلاص الذي هو سرّ الدعوة والذي يحرك الدعوة إلى الله.

الدعوة ليست كلمات أو حكايات أو قصصًا... إنما هي حالُ صدق يتوجه فيه الإنسان إلى الله، فلا يحتاج الداعية إلى الله أن يُجر جرًّا، فنور الصدق والإخلاص وحالُ التوجه إلى الله يجعله شُعلةً متوقدة، وهذا الحال الذي يمدّه الذكر، والذي تمدّه الصحبة الصالحة، أصبحنا نجده خافتًا خامدًا.

إذًا: نحن بحاجة إلى مراجعة، وقد أحببت أن أشير في عُجالة إلى أننا نعيش أمراضًا فتّاكة، لا من أجل أن أعزز روح اليأس والإحباط، إنما من أجل أن نتساءل جميعًا:

كيف يمكن لنا أن نعود إلى إسلامنا عودة حقيقية.. وعودة صادقة.. وعودة متفاعلة..؟

كيف يمكن لنا أن نقرأ القرآن ليكون فينا ونحن مقبلون على شهر القرآن؟

هل نحن مقبلون على شهر نتلو فيه القرآن ونُكثر من تلاوته فقط، أم أننا نهيّئ أنفسَنا من أجل أن نتفاعل مع القرآن تفاعلاً سلوكيًّا، ومن أجل أن يكون القرآن في أرواحنا وقلوبنا؟

ردّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.